موضوعات الزجل الأندلسي بين التقليد والتجديد
دراسة في ديوان ابن قزمان

أمينة الشريف سالم
باحثه دكتوراه – قسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة القاهرة

ملخص:

في هذا البحث تم استعراض بعض موضوعات الزجل الأندلسي، فمن المعروف أنه تضمن موضوعات الشعر التقليدي والموشحات نفسها؛ ومن ثَم فقدْ تركز الاهتمام هنا على الموضوعات الجديدة والمستحدثة في الزجل، وهي موضوعات تنطلق من الحياة الشعبية وروح الاستطراف ومحاولة خلق النكتة، وتعبر عن الحياة الاجتماعية الأندلسية الاحتفالية بصفة خاصة، كما تنقل فن الشعر الفردي الغنائي إلى الكدية التي ربما يؤدي إلى نجاحها أن القصيدة الزجلية مكتوبة بالعامية.

We expose in this reasearch some subjects of the Andalusian Zejel. It is known that the Zejel includes the same subjects of the traditional poetry and the moashhat, for that we concentrate here on the newly invated subjects in this Zejel, which are related to folkloric life and fun spirit during trying to create anecdotes and expressing the social life specially in its ceremonial aspects. Also the Zejel transforms poetry into beggar art successfully by its colloquial dialect.

موضوعات الزجل:

يشترك الزجل مع الموشحة والقصيدة التقليدية في الموضوعات، ومع ذلك ينفرد الزجل بكثير من التجديد في تقنية عرض موضوعاته التقليدية، كما أنه ينفرد أيضاً بموضوعات جديدة، ونبدأ بهذه القصيدة

موضوعات الزجل الأندلسي بين التقليد والتجديد دراسة في ديوان ابن قزمان ، المجلد الثالث، العدد ٢، أبريل ٢٠١٤، ص ص ١١٥ – ١٣٦.

رقم (١٢) في ديوان ابن قزمان[1]:

ـْنيكم ... يهنيكم عن قريب نجيكم وعمامـــه بيضـــا وخمـــارا أحمـــر
ـِّ ـــوا النقـــيرة اجعلوا الدف لليدْ في العـرب لي صـوله ' غنـىَ أن تظهـر
والله والله الشـــيز ' يفرط فيـه حـدْ ـِّ ـــوا نـــاقتكم يسرـــوا عـــبريكم

***

وإن أمكـن بنـدير فالزيـــادة أجـــود أش تقول في الغـازي والشويخ مبخـور
ـالزَّمير يـا أصـحاب الـــزمير يحيـــيكم لى يـدّه شـَّاش وهو بـالله معـذور
ورثـــاه إذ يرثـــي واللعـاب في القجـدور
وكذا قـط بفْلـت وهو بـين أيـديكم

***

ـعـــوا لي قُـــرَّه ناعًـــا مَّايـــل قد جاء سحرا عـالي من لا يرقـد يمـرض
ـُـــوْ لابـــس ملامًـــا كامـــل سب، كلبًا أبـيض سب كلبًا أبـيض
وعليـــه حزايـــز كما جت من بابـل كعّكـوا الأذنـاب وارقدوا في المـربض
لا تقيلـــوا بـــالله فأنـــا نـــدريكم فـإذا كـان غـدوه قوموا يصـطاد بـيكم

***

قـــرويكم واقـــف للاعـــب هُـــزوا كلكـــم نعشـــقكم بـــالنبي حبـــوني
ومن أسقط نغمـه المحـــاجم ذُرّوا دونكم لس نفـرح ولا أنـــــتم دوني
ـر مـريم عُيْشَـه أيـــنكم اهتـــزوا ـ جـــرى شي فيَّ كلكـــم تبكـــوني
ولولـوا قحيـبش بالـــذي يهـديكم أو جـرى شي فـيكم (فانـا نبكـيكم)

***

اعملـوا للقـاضي من مخـادد كـرسي
فـبروره واجـب من يكون من جنسي ـ
أي غلام يا قـومي كـذا هـو إنسي ـ
ـَّكـم بسـم الله أيـن فنـبر فـيكم

***

يجد السيف حـاضر والهمايـم تحضر ـ

وجلي أن النص السابق يصف كرنفالاً تتخلله أعمال مسرحية ويمتلئ بألوان من الفارس الكرنفالية التي تعظم الشخص ثم تسخر منه وتحقره لخلق جوٍّ من البهجة.

هل هذا الكرنفال المشار إليه في هذه القصيدة امتداد لكرنفالات كلاسيكية أشار إليها باختين في حديثه عن الرواية؟ أود القول إن العرب - بل وربما الشرق - لم يعرفوا فكرة الكرنفال، من ثَم لا يمكن إرجاع هذا الكرنفال الذي يصفه ابن قزمان - في إبداع - إلى أصل عربي وإنما هو بقايا كلاسيكية عاشت في الأندلس.

أيضًا في هذا الديوان نجد وصفًا بديعًا لاحتفالات رأس السنة وأعياد الميلاد بطريقة تكاد تقترب من الاحتفالات الغربية الحالية، ومع وصف هذه الاحتفالات يظهر اسم الشهر الأفرنجي أو الميلادي المرتبط بها " يناير " أو (ينير/ جنير) باللهجة الأندلسية ولا أحسب هذه الاحتفالات إلا تطويرًا مسيحيًّا لأعياد وثنية كلاسيكية لآلهة الرومان أو ربما قبلهم اليونان، وامتد وجودها حتى دخول التعريب والإسلام للأندلس.

وليس هذا غريبًا فابن قزمان في ديوانه نفسه يحدثنا عن الاحتفال بعيد الحصاد، وهو عيد وثني روماني يتم الاحتفال به عند حصاد محصول العنب، ويستمر أسبوعًا في المقابر؛ حيث يقيمون بها مع نبيذهم وآلاتهم الموسيقية، بين رقص وغناء وشعائر مختلفة تجعلنا نظن ارتباط هذا العيد بإله الخمر عند الرومان واليونان من قبلهم وربما أيضًا ارتبط بشعائر عبادة السلف.

ويدخل كل هذا في تبني المسيحيين للأعياد الإسلامية وتبني المسلمين للأعياد المسيحية، كما نرى في خرجة موشحة يعلن فيها الوشاح المسلم فرحته بعيد العنصرة، وهو عيد القديس سان خوان عند الإسبان، وها هي الخرجة:

د يَـــا أَلْبَـــاد يَـــا
ديـــا دي العصر حقّـــا
ـــتر يه ثـــوبي المُـــدَبَّج
ونشـــق الـــرمح شـــقّا

كما يحكي لنا ابن سعيد في مُغْربه[٢] عن أن عبدالرحمن الأوسط عندما سأل عن سبب غياب وزيره المسيحي الأثير لدى ٥ أيام الآحاد فقيل له إنه يذهب للكنيسة لصلاة الأحد.

ورد فعل عبدالرحمن الأوسط كان منح إجازة لكل الدولة أيام الآحاد، كما كان

يوزع مبالغ من المال على موظفي الدولة في الأعياد، يضاعف المبلغ للمسلمين في عيدهم ثم للمسيحيين في عيدهم؛ بمعنى أن الجميع يتمتع بالمنحة لكن يخص لكل فئة بمبالغ أكثر في أعيادها حتى تستضيف الفئة الأخرى في مشاركة تضم المجتمع وتذيب الفوارق.

ونظن أن هذا الجو من التسامح قد أبقى عددًا لا بأس به من قائمة العادات والشعائر الكلاسيكية التي لا بد أن تكون قد احتضنتها شبة الجزيرة الإيبيرية التي غزاها اليونان والرومان معًا واللغة الإسبانية والبرتغالية والقطالونية ليست إلا شاهدًا لتحول شبه الجزيرة إلى مقاطعة رومانية لم يحاول العرب مسح معالم ثقافتها أو محوها، التي كانت ثقافة شفهية، يعني أنها كانت مجموعة من العادات والتقاليد والشعائر والمعتقدات التي ليس من السهل رصدها إلا في بعض النصوص النادرة كالتي سبقت الإشارة إليها.

ونظن أيضًا أن الأمر لم يقف عند التسامح مع هذه المنظومة الثقافية بعدم محوها إلى تبينها، كما يتضح من العرض السابق، وفي هذا السياق يحدثنا ابن خلدون عن أن الأندلسيين المهزومين في آخر عهدهم ارتدوا الملابس المسيحية وفسر ذلك بأن المغلوب يحاكي الغالب.

وقد أخطأ ابن خلدون[٣]؛ فقد بنى نظريته على زيارته لغرناطة وملاحظة تبني أهل غرناطة لثياب أهل شبه الجزيرة، ولم يتحقق مما تحققنا منه أن الأندلسيين قد تبنوا هذه الثياب في القرن الأول لوجودهم في الأندلس إعجابًا بها وعن اختيار أيام كانوا غالبين لا مغلوبين، كذلك تبنى زرياب موسيقى الكنيسة وعلى ضوئها اكتشف السلم الموسيقي الغربي وغيّر من الموسيقى العربية ملغيًا منها أجزاء النغمات.

وفي ظل ما سبق يصبح العنصر الكلاسيكي في الأندلس ليس بين الحضور والغياب ولكنه بين معرفتنا به أو جهلنا بوجوده لإهمال المصادر القديمة تسجيل جوانب الثقافة المختلفة بشكل منتظم، حتى أننا نرى اعتباطية تسجيل هذه العناصر ومثلها عشوائية معرفتنا بها واعتمادها على الصدفة، ولا سيما أن أحدًا لم يحاول البحث في هذا المجال الذي كان ينبغي أن يحظى باهتمام لانبثاق العناصر الكلاسيكية فجأة ابتداءً من الأسطورة

وانتهاءً بالمسرح بمجرد سقوط غرناطة، بل وقبل ذلك في المدن التي تمت استعادتها على يد الإسبان.

ومن الموضوعات التقليدية التي قدمت في ثوب جديد - ينطلق من طبيعة المجتمع المختلفة الغزلُ الدونجواني بالغلمان ولم يكتف هذا الزجل بالدونجوانية فحسبَ، لكن اختلف في إضافات جديدة غزلية لأن الغلام يستمد جماله من حسبه ونسبه، ويظهر ذلك في الزجل رقم (٦٩).

ويدخل في هذا الباب التغزل بغلام مرابطي، ويبدو أن هذا الغلام يعمل عند أحد أمراء المرابطين، ولكن الطريف هنا اللعب بلثام المرابطين، زجل (٧٠)

بالذي يعطيك رضا الأمير
إياك تُلثم إلا كبير
فبالعمامة بالله نغير
لما هو فمك تحت اللثام

***

ما هو لثامك إلا عدُ
قاتله الله ما أسعد
معذور أنا أن نحسد
يشفى من قاف وبا ولام

ومن العجيب في هذا الغزل بجانب طرافة استخدام اللثام، التغني بفروسية الغلام والإشادة بنسبة وأدبه وهو أمر تكرر في غزله الدونجواني، أيضًا من الطريق التمهيد للغزل بالمجون والخلاعة والتندر بالفقهاء (٧١):

بيني وبين الفقي جاري في الكاس حروب
في أيام الخس والبسباس تحلا الذنوب
كما يرى لحية بيضاء يقول لي توب
وأنا كما دابي نتعلم طُرق الزنم

وهكذا المدح نفسه يتحول إلى لون من الغزل:

وذكرك أحلى من السكر عند الملوك

وينتهي عادة بالفخر بروعة شعره طالبًا العطاء، لكن بطريقه صريحة وتكاد تكون جديدة كما نرى في هذه الخرجة:

فكل شاعر إذا تكلم حويج ثم

أيضًا نجد شيئًا من التناص مع عمر بن أبي ربيعة في قصيدته المشهورة (أمن آل نُعْمٍ).

لكن الجديد هنا تزايد كوميدية القصة بشكل ممتلئ بالغزل؛ حيث تطلب منه المحبوبة أن يزورها في زي شحاذ حال غياب زوجها، ولكن ذلك كان فخًّا أضحك عليه الناس وتجمعوا للسخرية منه لينهي الزجل بالسخرية من نفسه ومن خيبته. والقصة تبدأ كما لو كانت سيرة ذاتية؛ حيث يصف تحوله من المراهقة إلى صورة الرجل الناضج: الزجل (٨٧)

كنا صبيان ودارت الأحوال

والتحينا وصرنا ذاب رجال

ثم يحكي كيف استأجر بيتًا يستحق أغلى إيجار؛ لأنه في حي الأرامل، وبه قصبة عليها باب كبير تكشف الحي من ثلاثة أميال كما يقول، وهذا الحي:

والربض لا شيوخ ولا حجاج

وأرامل ملاح بلا أزواج

ويجوني طول النهار عن حواج

وأشياتا لس ينبغي أن تقال

إلى أن تقف ببابه امرأة بالغة الجمال، ويتمنى أن تدخل بيته لكنها ترفض وتطلب منه زيارتها في بيتها بعد صلاة العشاء حيث يخرج زوجها للمزد[٤]:

زوجي خارج بعد العشا للمزد

جي ولكن إياك يميزك أحد

بس أطمار وجُب واشما تجد

لامك غير مع الأشكال

وبالفعل يرتدي هكذا ويبالغ في التخفي ويمسك بيده عكازًا ويمشي حافيًا، ولكن بمجرد خروجه من منزله متجهًا إلى زقاق المرأة يتجمع حوله الناس بالطبل والمزمار ساخرين منه ويكتشف أنه قد وقع في فخ: [٥]

تُ وَ السَّاعَ صر َ ْ نَا ملاحْ

لا. يقَ ْ ً لا ً صِ حَاحْ

فيعلن التوبة ويتفرغ لكتابة المديح في الكبار، وهكذا يبدأ في المقطوعة (٢٨) مدح ابن زهر حتى آخر الزجل (المقطوعة ٣٣).

وتتكرر المغامرة نفسها لكن هذه المرة ناجحة وفي غياب الزوج أيضًا، الزجل (٢٠).

أما الموضوع الذي يغص به الديوان؛ فهو الحديث عن قدوم العيد وحاجته إلى الخروف والملابس والطعام، وحتى دون أعياد يتحدث دائماً عن حاجته إلى الزيت والشعير والخبز والدقيق والقمح كذلك، يبدي كثيراً حاجته إلى الخمر ليصبح الموضوع الثاني لكثرة وجوده، ولا يخلو أن تأتي هذه الموضوعات في قصائد غزلية ممتعة.

وتبدو الطرافة في المَزْج بين الشراب والحب، ومثال ذلك المقطوعة الأولى من الزجل (٥٣):

جهًا مليح وشرابًا أصفر
غَاي ذي لس لقدام أكثر
ان أمس أذامًا شربنا الاثنين
أنا وذاك المليح العينين
قبلت لك في الشفيفات مرتين
بلا حُلوُ حُلوُ أشي سُكر
سكرني به قبل أني نسكر

وتكثر مثل هذه القصص في ديوانه؛ حيث يحكي ما حدث له في أحد الأيام من أتوائراً جاءه، فأمر الخادمة بأن تخبره بأنه مشغول وصعد للنوم، فغضب الزائر وقال ما سمعه ابن قزمان في المقطوعة ٥ من القصيدة (٨٨)

مَعْتُهْ وكَرَّرْ عَجَبْ
د مَا انْقَبَضْ وغَضَبْ
لُّهْ إِنْسَانْ يُقَال لُّهْ "َبْ "

وعندما سمع ابن قزمان كلمة ذهب قفز من حيث هو إلى وسط الدار وبدأ يقرع ويوبخ الخادمة ثم انثنى يمتدح الزائر:

لَسْ وَمِنَّ متَى كَانُّيك
للهْ يَعْلَم محَبَّتِي فيكْ
سرْ ُورْ وَفَارِحْ بِيكْ
َ الشُّكرِ والثَّنَا فَشَقارْ

وينتهي الأمر بأن يبلغه ذلك الزائر بأنه رسول أحد ممدوحيه ولديه أوامر بأن يعطيه ما يريد، ومضى يمدح في ذلك المحسن.

– ومن المواضيع الطريفة في زجله هجاء النساء، ومن الغريب أن هذا الهجاء توطئة لمدح من اسمه الوزير أبو الوليد ومطلع الزجل قصيدة (٨٩) يقرر أنه لن

يعشق بعد ذلك (مقطوعة ١):

ا َ فِيْ علْمَكْ ب ْ منْهُمْ غنيمة
وَحْدَ م نْهُمْ ـ ْ فِيَ الدُّيمَهْ
ن في ْ عَيْنِي دَةْ والْقَديمَةْ
يدَةْ والْقَرِيبَةْ ينَةْ والدَّقِيقَةْ

ويتمادى في هذا الهجاء حتى يقول:

َ النِّسَا عَلى شي ْ هُودْ وَلا مواثيق
الخُلاَعَ عِنْدِي جُنُونْ

فوجه الغرابة بل والجديد هنا هذه التوطئه الغريبة فالعادة يقدم للمدح بالغزل.

وكما ذكر من قبل فإن الخمر تعد من أهم موضوعات الديوان، وهي من أسباب فخر الشاعر بنفسه،وأيضً ا سبيله لهجاء الفقهاء الذين يعاديهم في كل أشعاره؛ فمطلع القصيدة (٩٠):

ـْرِي فِيَ الخُنْكَرهْ والمُجُونْ

وفي المقطوعة الأولى يقول:

أن نُتُوب أَنَا فَمُحَالْ
بلا شرُ َيْبَةْ ضَلالْ
وْ وَدَعْنِيْ مِ َّا يُقَالْ

فهنا يصرخ طالبًا البينو (النبيذ)؛ لأن ترك الخلاعة عنده جنون.

ثم يحاكي أبا نواس قائلاً :

كُلِّ مَنْ أكَلْ عُنْقُودْ
في قَبرْ يَ الْعَرْجُونْ

ويمزج الخمر دائماً بالمجون، والجنس مع النساء فها هو بعد أن سكر يستقبل امرأة مثيرة بربرية (نحنا والله جلوس وجتنا بتاج ... بربرية ...).

والغريب أن هذا المجون والغزل المكشوف تمهيد للمدح، والممدوح وزير مما يجعل الأمر غريبًا، ولكن فيما يبدو أن ابن قزمان كان يعرف هوى كل ممدوح فذاك يكره النساء مثلاً يقدم للمدح بالهجاء، والآخر يحب اللهو والمجون فيقدم للمدح باللهو والمجون.

وهكذا فالمدح عنده هو الموضوع العمدة، وقد يمهد له بالخمر أو بالغزل أو بالهجاء أو ببعض القصص التي ترتبط بحياة ابن قزمان بهجاء النساء، إلا أنه في كثير من الأحوال يدخل على المدح مباشرة، والحقيقة أنه يصف سوء حاله

وفقره وجوعة أكثر مما يمدح مثلما نرى في الزجل (٩١) فهو يبدأ الزجل بقوله:

مَـــيِّدَ الـــدُّنْيا بْـــــَّ حَالَـــهْ
ينِي مَا نَنقْ ي الْبَطَالَـــــةْ

ثم بدأ يتحدث عن نفسه حتى المقطوعة (٥) وفي المقطوعة (٦) يمتدح زجله ويمدح الممدوح قليلاً وينتهي الزجل في المقطوعة (٨) حيث تنتهي بخرجة غ ذائية:

لَ الَـدَّرْمَكْ ... إلى خَالَـهْ ؟

والدرمك هو الممدوح (أجود أنواع القمح) أما النخالة فهي حُسَّاد الممدوح.

وهذا المدح المباشر بغير مقدمات قد يكون مدحًا لصديق كما نرى في الزجل(٩٢) الذي مطلعه: (يا جوهري يا نعم الصديق) ثم يتحدث عن فاقته وحاجته لمساعدة هذا الصديق.هنا يبدو الممدوح نِدًّا للشاعر؛ ففي المقطوعة (٨) قبل الأخيرة:

ـَازُجَيَّـــلْ جَـــا إلَيْـــكْ
ـدْ جَعَلتُـــهْ بَـــينْ أديـــكْ
أرسل مَـا يتْ هُـوعَلَيْـكْ
ْكُو الإقْـلاَلْ يَ الطَّرِيـــقْ

فعبارة "عار عليك" لا تليق بمدح من هو أعلى، بل أن الزجال يبدو وكأنه الأعلى في المقطوعة الأخيرة عندما يصدر أمرًا للممدوح:

ـوْهَرِي قُـمْ ـلْ جَيِّـلْ

وقد تكون التوطئه للمدح – وهذا كثر عنده –حديثًا عن سوء حاله وفقره ثم يحمل الممدوح مسئولية حل أزمته؛ ففي المقطوعة ٥ في الزجل (٩٣) تبدأ بقوله:

تمُسَّـي ضرورة ـ بِنْ كَمَا ـَيْتْ
إِذَا أُقِيـل لُـهْ قُزْمَانيُقُولَيْتْ

ومن جديد مدحه تحول المدح إلى غزل:

وَزِير الأعْلى ـَ نْظَرْ وَمخْبَرْ
ـبَ العذَار الأسود ـَ الْوَجهَ المُدَرْ
ـد ـرحَد يثُـهْ ي كُلِّ سُكَرْ
ـُمْ فَحَـاتِمْ ،ذ كْرُ قَدْ بَارْ

وتنتهي القصيدة بمدح الذات؛ حيث إن الخرجة:

سْ ثَمَّ زَجَّـال التِّسْعَ أسْطَارْ

ويجب التنويه هنا على أن ابن قزمان يستخدم أسماء مختلفة عن كل زجل؛

فأسطار هنا جمع سطر، ويعني بها مقطوعة، ومن الواضح أن عدد المقطوعات له علاقة بأنواع تتعدد للقصائد الزجلية.

وامتداداً للمجون يقدم زجلاً غير عادي؛ فهو يتحدث عن الشراب ويدعو الناس إليه، ثم يتحدث عن السكر وكيفية مساعدة السكير على أن يفيق، كذلك يتحدث عن علاقة السكير بالفقهاء، ويرى أنه ينبغي عليه أن يكذب عليهم ويدعي أنه لا يعرف شيئًا عن الخمر.

وبعد أن ينتهي من شربه ومن نصائحه التي منها (المقطوعة ٣ – الزجل ٩٤):

وَصي هَ ـــيَ للجَميـــعْ
ُوْاخُـــلاَّعْ فـــوْمْ خَليـــعْ
ـــوا إلاَّ بكَـــاس أوْ قط يـــع[٦]
ى إيـــاك لا تمَشُـــوا صـــحَاحْ !

فإنه يبحث عن نديم يسكره ويمارس معه الجنس وتنتهي السكرة بهذا الغزل المكشوف تمهيداً للمدح؛ حيث يمدح في هذه القصيدة من يطلق عليه (ذا الوزارتين)، وهو زجل طويل يتكون من ٣٢ مقطوعة والمقطوعة ٣٢ بها:

والـــولاول في دارك أنـــت تـــدور
ويقيمـــوا عـــلى عـــدوك النيـــاح

وهو دعاء فيه شيء من الغرابة، لا يتفق مع وقار ذي الوزارتين.

وقد تم الحديث كثيراً عن الغزل الذي يمهد للمدح، لكن توجد بعض قصائد تتخصص في الغزل وهي قصائد طريفة فيها كثير من الروح الشعبية؛ حيث مطلع القصيدة (١٠٨):

ـقر ... يـا حُـلى َ يـا سُـكَّرْ

وفي هذه القصيدة يتحدث عن قدوم رمضان وعدم قدرته على فراق حبيبه في ذلك الشهر، والحبيب هنا فتى يذكر اسمه في المقطوعة ٢:

َشَقْتَ إبراهيم لُهْ مقْدَارْ

وتنتهي القصيدة ذات التسعة أسطار بالحديث عن خلود حبه لإبراهيم هذا كما نرى:

ـَاْعشْـقَاً مْ خُـلْ قَـبرْ ي

والقصيدة (١٠٩) تتبع خطى القصيدة (١٠٨)؛ حيث ينفرد بها الغزل أيضاً بفتى ومطلع القصيدة:

أَنَا دُونْ خمَرْ نْ سَمَرْ
ى مَعْنَى الأَمَرْ ـا قَمَرْ ؟

ومن أطرف ما جاء في هذه القصيدة تلك الصورة المقتبسة من القرآن والفريدة في نوعها في المقطوعة ٨ من تلك القصيدة:

يَلانْ بِحَال الفُحُوم
ْطَاني هِ ي رُجُوم
لْهَا مثْلَ النُّجُوم
دْ فَرَّ رْ أَلضرَّ رْ

ومن عناصر التجديد الكبرياء في الحب كما نراها في الزجل (٣٤) الذي مطلعه:

نْ صدَّ عَنى ومني
ع قبل أن يُذلَّني

ويستمر في هذه المقدمة الغزلية التي تقدم لمديح إلى أن يقول:

من يلبس في الذُل خز
ُطعم ألوان حُلو ومز
لا يكنّي ولا يُعَز
تد هُو طبه طبعًا دَني

وهذا الإحساس بالكبرياء في مواجهة الحبيب يتكرر عنده مخالفًا الصورة المعتادة للعاشق العربي، وكما تظهر في عموم الشعر العربي، وهكذا يتنوع العشق عند ابن قزمان ليصل إلى مناطق حياتية عند العاشقين لم يتناولها الشعر من قبل مثل تزين العاشق لمحبوبه مثل الزجل (٣٥) المقطوعة (٥):

نْ شَان العاشق أن يرجع ظريف
صً ا أبيض وقُرقًا نظيف
ا مَّعْسُول وروحً ا خفيف
وحش ما عندي عاشق مزبلي

وعمومًا الملابس تشغل حيزًا مهمًّا في زجل الأندلس وقد تكون عطاءً من الممدوح وقد تكون جديدة براقة للأعياد، أو كما رأينا منذ قليل لإغراء المعشوق. والمعشوق أيضًا يرتدي أفضل الملابس لعاشقه.

أما في الزجل (١٢٧) م (٣):

المعشوق شمس عاشقه وزهرته وهلاله ودنياه وروحه وماله بل وَغزاله فيخاطبه:

بِس الرَّدا والظِّهَارَهْ
ُ لهَّكْ والأمَارَهْ

ـــــن والضـّ ـــــيَا والنّـــــدارَهْ
ـــــزّ في الثِّيَـــــاب الحَـــــوَالي
ـُكْ وَالْغَـوَالي مِـنْ حَـوَالي

ومن غرائب الزجل امتداح الشاعر الزجال لشعره بشكل مطرد ومتكرر ولكن بأسلوب لم نتعود عليه في شعرنا؛ ففي الزجل (٤٤) يقول في مقطوعته الأخيرة:

ـبْت مِنْ كَلاَمي تَتَّقِ مِصْبَاح
قْ شِعْرِي نْ هذا الأرْوَاحْ
أُو مِدَادِي وأنَّما ثَنَاكْ فَاحْ
ـبَّما هَّرلَّكْ كِ مَكْتُوبْ

وهنا تأتي البراعة إذ يمزج مدح شعره بالثناء على الممدوح، ومرة أخرى في الزجل (٨) يحوِّل عملية الكتابة إلى عملية عسكرية: (م٥)

رَمَيْتْ عَلى غَفْلَه
كَانْ ذِهْني وَالقّلم نَبْلَهْ
ـْ ـدَادْعِ ـوَضْ بَقْلَهْ
صَ ـالمَعَـاني في المَقْتَـلْ

وفي كثير من الأزجال يفخر بإيجازه وقدرته على الارتجال كما نرى في المقطوعة الأخيرة في الزجل (١٩) كما أنه دائماً يكيد العدا ويملأهم بالحسد لروعة أزجاله، وأظنه هنا يقصد الزجالين الآخرين المنافسين.

ومن الصعب إحصاء هذا الحديث عن شعره الذي يستحق أن يكتب عنه كتاباً مستقلاً فمثلاً في الزجل (٧٨) زجله من يبتهج ويخالط قلب الإنسان وبه يمتزج، وهكذا يتحسر على نفسه؛ لأنه لم يوجد في عصر ـ كان الملوك يقدرون الشعراء مثل عصر المعتمد ابن عباد ففي الزجل (٧٤) ينهيه بالآتي:

ْ غُلاً تُكُونْ مَشَاعِر أديبْ
أرَدتً الْغُنَاعْ شَيئًا عَجِيبْ
ُوْلَ كَّنرْكَبْ عَلى نَجِيبْ
نّ يَسْمَ التَّغْرِيد المُعْتَمِدْ !

وهنا يربط الزجل بالغناء ويتحدث عن سوء حظه؛ لأنه لم يوجد في عصر المعتمد.

وفي مواضع أخرى يمزج غناء الزجل بالرقص؛ فالزجل هكذا يؤكد الخبر بأنه فن شامل.

ويصل في مدح شعره إلى حد الغرائبية؛ إذ يشبه شعره بالقمر في الزجل (٤١) حيث يقول (كالقمر هو كلامي). وكما ذكرنا من قبل زجله الرائع يحزن العدو ويفرح الصديق كما نرى في الزجل (٣٧):

مْلَحُ يا قَزَّجَلْ وَمَا أجْوَدُ !
ـرُجْ عَلَى فُمّي إذ نَنْشَدُ
ـرَ افي مَكَان نزَّنْ هُو عَدُ
ـالْفَرَحَ والتّصديق مَنْ هُو صديق

وعلى الرغم من تحفظه على المرابطين ولجوئه دائماً لمدح من تبقى من العرب في بعض المناصب؛ مثل منصب القاضي فإنه بين الحين والآخر يمدحهم بل ويتغزل بغلمان منهم ففي الزجل (٤٧) يمدح تاشفين بن علي بن تاشفين لانتصاره على النصارى في إحدى المعارك عام ٥٢٨هـ. حيث لحقت الهزيمة بأذفونش بن ردمير، ويبدأ الزجل موجهاً إلى ذلك الملك النصراني:

نْدَكْ يا ابْمير ْ اخ سَارَهْ
ه لَقَدْ غَلَّق ـَ النَّصَارَهْ
فِين ْ تَطْمَعْ جمَاعَهْ

لَ أطْرافَكْ لٍّ سَاعَةْ
ـَا ما تَرْبَحْ ي التِّجَارَةْ

ومن الواضح أن الشاعر يرى الأمر على أنه انتصار للمسلمين أكثر منه مدحاً لابن تاشفين.

كما يرى فيه ذلاً للنصارى والشيء الطريف الوحيد في هذا الزجل الصورة الشعبية في خطابه لابن ردمير:

واتْ أضراسك من المراره

وينهيها بمدح أقرب إلى الذم:

مرابطين أنتم والقص ندرى
لس قط يعجبكم من فيه غزاره

وابن قزمان في معظم زجله يطلب من الممدوحين الزيت والطعام واللباس وخروف العيد والدقيق وأحياناً الخمر ونادراً ما يتحدث عن النقود؛ فها هو في الزجل (٤٨) يعلن قدوم العيد والعيد يتطلب الخروف والملابس الجديدة وغيره من احتياجات حيث يبدأ الزجل:

تْ ثَقْلَة يدْ ـن ْ أَمَارَهْ
يوم الا ثْنَين ْ ني أَلْبشَارَهْ
يدْ في حمُلا ن ْ والقَرايب ْ

ْ والصُّحيفَاتْ ... ـ ْ والمَحَالبْ
ـ ْ كُلِّ عَطّ ْ ... ـَرْ في َ المَنَبْ ْ
ْ ويْطَ الرُّوس ْ ... كُلِّ حَـارَهْ

ثم يستمر:

م َ الضَحِيَّهْ ... كُلِّ مِ رْمَادْ
ْ ظَـاهِ رُ للهْ ... ـفَرْحَ الاوْلاَدْ

ويتقدم إلى الممدوح طالبًا الكبش في المقطوعة (٥)

ـلِ ني كَشى لَلْعيد ... زَردق وَنَبْلَعْ
ـح ْ وَنَفَصَّـل ... ـَّدْ وَنَرْ فَـعْ
ـفَّـق وَنُكُـلْ ... ـى حَتَى نَشْبَعْ

وهذا جديد أن تتحول العلاقة بين الشاعر والممدوح إلى لون من ألوان الكدية يعترف بها الزجال مباشرة في أكثر من موضع كما نرى في الزجل (١٤٦)

نِي في الْكُدْيَـةْ نَحَـدَّدْ
ْ مِ سِيرَةْ نهَـاْ ازْيَـدْ
ـرى كِ نْقُـولْ مُحَمَّـدْ ؟
يـــاليتني زرقـــة اليمامـــة

الزجل (٩١)

ـَـيِّدَ الـدُّنْيا ... ـلِيَّ ْ حَالَـهْ
بنِي ْ مَاَ ننفَـقْ ... ذِي الْلَالَـــهْ

الزجل (١٥٣)

نَحْتَاجْ أَنْقُولكْ ... ْ أشْ ْ نِ ريدْ
ـنِي نَصِ يبِي ... ـكَ الجَدِ يدْ
نَرِيبْ والإفطَارْ ... َنْ سَـمِ يدْ

وفيما يبدو أن الأزجال استخدمت للغناء لا يقاظ الناس عند السحور كما يبدو في المقطوعة الأخيرة في الزجل (١٥٠)

رَهْ لَـوَ أنَّـكْ قَرِيـبْ
ـلِ ـدَارَكْ مَغِ يـبْ
ْ بِصَـوْتًا عَجِ يـبْ
سِ ـتَّي بِربَّـاعَفُـور
صَـحْبَ السَّـحُورْ

وعمل المسحراتي نوع من الكدية، ولا شك أن الأحوال في الأندلس لا تبعد الزجال عن رثاء المدن؛ ففي الزجل (١٤٧) يحكي لنا عن الديار التي يهجرها

سكانها وتصاب بالخراب، وهنا يمتزج بكاء الأطلال برثاء الديار بطريقة مؤثرة ومحزنة وتبدو وكأنها تصدر من القلب:

بيبْ مُذْ بَان ... دُومَ لَلْقَاعْ
لى َ ـير الدَّ ... دُّ نَرْجَعْ
، عَنَ المُوْطَن ... نْ حَان ريلُهْ
ار قَاْعًا صَفْ ... افَصِ ـيلُهْ
يْهَ القُمْري ... َ هَدِ يلُهْ
ـَارَقَ الخُلاَّنْ ... َير ْ يَطْمَعْ
ـُدُبَ الآثارْ ... ع في ْ مَضَعْ

ثم ينتقل من رثاء دار الحبيب إلى متسع من المكان:

َ ابَنْ زَيْدُونْ ... وأيـن افَالُـهْ
ـن حَوْمَـةَ ... ـنْ جمَالُـهْ
ـنْ المُكْرُوهْ ... ا حْتما لُـهَ
تَـرَاهْ فَدَّانْ ... ْ وَيُـزْرَعْ
والْ اشْـتيارْ ... لمْقَـام طَـعْ

وهذه الفاجعة تجعله يتخلى عن المُجُون، ويدخل في عالم التقوى وهذا بالنسبة لابن قزمان مأساوي جدًّا:

َ ابَنْ قُزْمَانْ ... ـال ُ إِنْ دَامْ

انَت َ أيَّامُهْ ... اد ْ في َ الأيَّامْ
د َ الطَّبَ َوالدُّفْ ... ل َ الأكْمَا َمْ
ْ سمعة الآذَانْ ... طْ وَيَطْلَعْ
سْجِدْ صَارْ ... دْ وَيَرْكَعْ

وينهي زجله بوصف كريه للغراب وما يرمز إليه من بين وخراب:

َوْتْ مَكْرُوهْ ... اجْل قُبْحُهْ
ُهْ مسْكَنْ ... ـلِّ مَلْحُهْ
نَرَى حُزْنُهْ ... ـوْ فَرْحُهْ ؟
مِّنْ غربَانْ ... وَمَسْمَعْ !
سْوَدَا بَيَارْ ... ذَا تَرَوَّعُ !

وعلى حد علمي لم أر وصفًا للغراب أفجع من هذا الوصف. وكما أن التوبة مأساوية لابن قزمان فهو في وصف بديع للربيع يبدأ بهجاء الوعاظ وأمثالهم زجل ١٤٨:

ْ قَالِي ِّ الْفَقِي ... ُولِي ْ أحمْقْ
، والرَّوْض َ ... سْك يَعْبَقْ

ثم بعد ذلك في ثلاث مقطوعات متوالية يتحدث عن جمال الثمار والأزهار ومدى مرحه بها مستخدمًا الكلمات المحاكية للصوت في آخر المقطوعة الثالثة

في شكل مثير:

ـ نَشر َ ْ ـ علامة ... ُ ـلْطَانًا مُّؤيَّـدْ
ا َ ر ْ كْ حُليهَا ... ن ْ فَوْق ْ تَغَـرَّدْ
أُلْبِس ْ غ ِ لاَهْ ... ْ لَوْن (الزُّمُرَّدْ)
مَع البَنَفْسِ ـجْ ... يَض ْ وأَزَرق ْ
ثُير ْ ي والآس ْ ... اح ْ وَ الظلِّ وألما
شِ يْق مُهَاو دْ ... ب ْ أَصَ مّ ْ مَى
ِن ْ صُنْعَ زَلْ ... ـن ْ صَـوْت ْ
اح ِي مُزَجَّجْ ... ـفْرَ مُرَوَّقْ
السَّعْد تَطْلَعْ ... ير ْ ي يَلْكَحْ
ـا وَدَنَّ دَنْ دَنْ ... وَقَحَّ قَحْ قَحْ
عَنِّي يَاْ قَـارِمْ ... ـحْ عُكَاظْ أَحْ
زَّعْنِي ْ يَا أُمَّهْ ... ْ عَمَلِي؟بَقْ ،ْ

ثم يواصل حديثه عن البهجة التي تكتمل بتقبيل كأس الخمر وصحبة الحبيب وأكل أطايب الطعام متغزلاً بالنبيذ:

اب ْ يا بينُو ْ ما ... لا َ ،َّ إنَّك حُلُو
قْنِي ْ حُبَّك ْ ... لَيْك اَلجُوْهَرْ

وكما أن الأندلسي يستمتع بربيع بلاده فإنه أيضًا مطرود من ذلك الربيع بدوام السفر والترحال وعدم القدرة على الاستقرار كما نرى في الزجل (١٣١):

َّ بَعْدَكْ مَن نَّنْتَظَرْ
لى َ الةْ م ِن السَّفَرْ
بَن ْ أدَمْ والله إلا طَيرْ ْْ
مُقْبَل ْ وَمَرَّ سَيرْ ْْ

ومن ثمَّ فالأندلسي- يشعر بالغربة والوحدة:

زجل (١٢٤)

ـدْ وَ العِشْقَ الشَّدِيدْ
بِيَّ أنَا الْغَرِيب اَلْفَرِيدْ

ومن موضوعات الزجل التي تتناقض مع طبيعة هذا الفن الرثاء، فابن قزمان وغيره من الزجالين يقدمون لنا نصوصًا فرحة تدعو لإثارة الضحك والبهجة، أما الرثاء بما يحمل من أحزان فهذا أمر غريب على الزجل كما نرى في الزجل (٨٣)؛ حيث يرثى القاضي "ابن حمدين" أهم ممدوحيه وأكثر الناس إحسانًا إليه، ولهذا يصبح هذا الزجل باردًا حتى من مطلعه:

َصَبرْ َنَاْ أَنْفَعْ ... ْ لمَ ْ يَمْدِ (٨٤)جَعْ

وفي المقطوعة الأولى نحس هذا البرود العاطفي نتيجة فشل الشاعر في التعبير عن

إحساسه الذي نتصور أنه قوي بالكارثة:

مَعْذُورْ وَزَايِدْ اللهْ يَفْزَعْ للشَّدَايِدْ

وكأنما يعتذر الشاعر عن فزعه أو حزنه لموت الممدوح، ويصبح الرثاء لونًا من ألوان المدح السلبي بمعنى أنه يذكر أن العالم سيخلو من الفضائل، بعد "ابن حمدين" لا حرمة ولا جاه:

لْـــاصي إذْ فَـــارَقْ لِـــوْلاَ
بَقَـــا لَفْظُـــهْ وَفَاتَنَـــاهْ
ـــوظْ والصِّـــدْقِ مُضَـــيَّعْ

ونبحث عن روح المرح المعتاد في الزجل فنجد أن الزجال يعجز عن تركها؛ ففي المقطوعة ١٤:

ـَاتْنَـــادَكْ رزيَّـــةْ كَبِـــيرَةْ
ـــيرَ سَـــانْ يَالْسَّـــنْهَايرَهْ
بَعْـــدَكْ أَقْوَامًـــا كَثِـــيرَةْ
ـــوثْ فِي جَبْهَـــةَ الأصْـــلَعْ

فالسطر الأخير ليس أقل من نكته تضحك أيضًا في موضع آخر يذكر أن القيم ستدخل في فوضى بعد موت الممدوح وبالتالي:

فَهِـــيم اَهْـــبَـــا أَبْلَـــهَ اطْلَـــعْ

ولعل الخرجة التي تدعو لقبره للسقيا تكشف عن هذا البرود:

ـــدَكْ وَبَـــرَّدْ وَسَـــعْ

ومن المواضيع أيضًا التي تتسم بالبرود الحديث عن الجهاد، ومع ذلك يقدم لنا مشاهد من المعركة مثل تقرير حربي لصحفي دون أن يستطيع كتمان هزلية الزجل كما نرى في المقطوعة ٤ من القصيدة (٨٦)

ُ رُوس العُلُوْج ووَهِ يرُكُوعْ
عَلَى الرَّقَابْ نَالَفِي الزُّرُوعْ
ُمحْمَك الطَّويلْ عَلَى الدُّرُوعْ
بْ يجوإِلَيْكْ يْ يَشَيَّزُ !

السخرية هنا إنه يصور رؤوس الأعداء الخاضعين لسيوف المسلمين، وقد التصقت بالأرض كأنهم يصلون صلاة المسلمين دون وضوء !

ثم أخيرًا يدعون الممدوح المجاهد بأن يعزف برمحه على دروعهم.

وأيضًا في المقطوعة الخامسة يتحدث عن فزع العدو حتى أنه (والنطاق على الخصى).

أيضًا يحيِّون الممدوح الغازي لكن بطريقة مضحكة كما يبدو في السطر الأخير من المقطوعة الخامسة:

يْ غُزَا .... كَالْعَقَارِبْ يَقْفَزُ

وهو يصف هروبهم بهروب العقارب من مطارديها لكن حركة الهروب تبدو وكأنها تحية للغازي.

هناك أيضًا كثير من الصور التي تقوم على المفارقة أو تحاول الإضحاك كما في المقطوعة (٨):

ـمْ للرَّجَال ... ـكُمْ بخير
ـجِيعْ شُورَىْ ... ـجِيعْ كَثِيرْ
ـَ لمَ تَفْرزْ ... ـرْ وَلاَ كَبِيرْ
كَانَ النَّفِيسْ ... ـلْ كَ نَفْرَزْ

فهو هنا يتحدث عن شجاعة المقاتلين مقسمًا لهم إلى من هو أكثر شجاعة أو أقل شجاعة مع أنه لا يعرف الفرق بين الاثنين؛ لأنه فقط يستطيع أن يفهم الفرق بين الشعر الرديء أو الجيد، ومع ذلك كأنه يسخر من نفسه، وتصل هذه السخرية إلى مداها عندما يتحدث في المقطوعة الأخيرة عن حضوره المعركة دون قتال مع ملابسة العسكرية، وبدا وكأنه موجود لاستعراض صفوف الجيش.

ومن المواضيع الطريفة التي قد ينفرد بها الزجل وصف النزهة في الأماكن المعدَّة لذلك، ويبدو أن الأندلسيين وراء هذا الاختراع؛ فابن قزمان يصطحب حبيبته في نزهة ويصف لنا ذلك في الزجل (٢٨):

زَاهْ إِلاَّ الْوَادْ ... ضرْ ـَ ـوالذَّلْ
نَا مَعْ المليحة ... ـطَيَّرْ تَوَلْوَلْ
نُروس الْيَوْمْ نزاهة ... ـخَافْ نَفْهَا فْ
تَرِي يَ مجُلَّلْ ... ـَا وَالوصَايفْ
ـيَابْ مِنَ المَا ... ـعُورْ مَلاَحَفْ
رَقعُوهَا الأقمار ... ـمْلْ وأَجْمَلْ

ثم يستمر في وصف تلك النزهة في المقطوعة الثانية:

جْ أَكْثَرْ نزاهة ... لَمِّ عَلَى أَطْبَعْ
نْ لْتَ وأنتَ نُومْ ... الهُمِّ أَجْمَعْ
ا أَردتَّ ذَابَ ... أَلْغَابَ فَاطْلَعْ
في الْفُحْش ... وانْطَرَبْ وَغَنِّى

أيضًا من طرائفه وصف الثياب؛ ففي الزجل (٢٤) يذهب إلى السوق بحثًا عن شراء ثوب بمواصفات يحددها تحديدًا دقيقًا، ولكنه لا يجد ما يريده إلى أن يراه

أحد الصبيان وقد يئس من الحصول على الثوب الذي يتفق ومقاييسه ينادي عليه ويقول له [٨]:

يِّ أَوَّ ذَا غفارة طَلَبْتَ فِيهَا

فتعجبه بالفعل ويطلب شراءها فيقول له الصبي:

الْقَصْدِ نُقُول مِنِّيهَدِيَّهْ

وفي المقطوعة (٧) يبدأ مدح هذا الصبي الكريم ثم يمدح أسرته حتى المقطوعة (١١) التي ينتهي فيها بمدح نفسه.

وعلى الرغم من فخره المستمر بالعربدة والفُحْش والسُّكْر إلا أنه في الزجل (٢٠) يحكي لنا قصة طريفة عن عِفَّته في مواجهة زوجة الجار التي تغريه وتناديه وعندما وجدت انصرافه عنها لعفته ومروءته ومراعاته لحق الجار اتهمته بمضايقته لها وشكته لزوجها الذي وبَّخه وضربه على وجهه واتهمه بكل نقيصة، وقد تحمل هو ذلك ثم يقول:

نَرَى الجارة إلا سالُ أختَ
نْتَ اظُرْنَاطُ دُوْ مُرْتَ
تْ عَلَى ذُنُخْتَ
يْتْ مكّارْ تَنْزَعْ شُدْارِى

ومن المواضع الطريفة أيضًا كما نرى في الزجل (١٨، ١٩) هجومه الكاسح على الزواج والزوجات مفضلاً العزوبية والانطلاق والحرية.

ولا يعدم ابن قزمان البحث عن مطالع مختلفة لأزجاله مثلما نرى في الزجل (٧٢) يبدأه بوصف حلوى العيد في خمس مقطوعات كاملة.

وأي عيد هو؟ إنه الكرسمس كما سبق وأشرنا، أيضًا في مطالعة يلجأ للاستطراف كما نرى في الزجل (٧٣) الذي مطلعه:

لم قط يسمى أحد أحمق ... حتى عشق

ومن أطرف الموضوعات التي لا نجدها في شعر آخر ما نراه في الزجل ٨٠ في خطابه للقَمح الذي يشمل الزجل بأكمله ومطلع الزجل:

القمح الجديد أنا حبيبك
لس يهنى لى عيش حتى نصيبك

وتبدو الطرافة في المقطوعة الأولى عندما يخاطب القمح هكذا:

انظر في الرحيل إلى صديقك

والموضوع الذي يتفرق بكثرة في شعره الحديث عن فقره وفاقته وهو حديث غالبًا مبالغ فيه وإن كان يمثل ظلاً لواقع بائس للشعراء في عصر المرابطين، ونرى هذا الحديث عن الفقر مثلاً في الزجل (٨١)، وهو يقارن بينه وبين الناس غير الفقراء مستخدمًا كثيرًا من الصور الفولكلورية ومطلع الزجل[٩]:

ـ ْ في إدَامْ ـ ِي يَابس ْ
تَ شَوَيْ ـ َى نَقَايس ْ

ويكرر الصورة في المقطوعة الأولى:

ْ لَلسَّمِيدْ ـ لِ كَسرَ ْ ـَهْ
ني عَلَيْهَا ـ خِ نَسرَ ْ ـَهْ
ـأَنِي أرَى ـ سِمِ سرَ ْ ـَهْ
ـر بَالْغُدُو ـ ي نَاعِس ْ

ثم يأتي مطلع المقطوعة الثانية بتورية بديعة:

م ْ لحَمْ وَأنَا ـلاَ شي

حيث إن (بلا شي) تعني دون شواء؛ أي دون لحم، كما تعني أيضًا لا أملك شيئًا.

ومن الموضوعات التي لها مغزى مزدوج كثرة الأسفار؛ فتلك من ناحية قدر الأندلسيين، ومن ناحية أخرى صفة يتصف بها الزجال الجوال، والسفر عناء وحزن ترك البيت إلى المجهول وأيضًا غش المكارين.

كما نرى في المقطوعات (١٧، ١٨ – ١٩ من الزجل ٤) علمًا بأن الزجل كله يتحدث عن بؤس هذه الحياة كما نرى في مطلع ذلك الزجل:

إنْ تُعْطَى ْ يذَّ الخِ يَار
ْ تَرَا مِنَ الأسْفَارْ
مضى ـ المُضِي ـ والرُّجُوعْ
ْ مَا نهَبْطُوا تَرَانَا طُلُوعْ
ْ حَرِيص ْ فَهُو مَنُوعْ
ن ْ مَعَ الضرَّورَ ْ تيِارْ

وتبدو الصورة مأساوية إلى حد بعيد.

وإذا كنا نتحدث عن الاستطراف فيبدو ذلك بشكل فيه إضحاك وسخرية عندما يتحدث عن الصيام وما يحدثه للخليع المتهتك من آلام وكوارث؛ كما يتضح مثلاً في المقطوعة ٦ من الزجل ١٣٦، يقول:

ـــــع قَلـــــــبُ يَفْـــــــزَعْ
ـــــر للكـــــــأس وَيُمْنَـــــعْ
حِـــينْ يُنْـــزَعْ ... مِـــنُ أمُّ

وفي الزجـل (١٣٧) يتحـدث عـن كارثـة قـرب دخـول رمضـان طالبًـا مـن أصدقائه العون.

وهكـذا - وقـد استعرضـنا مواضـيع الزجل - يتضح أن ثمـة نسـبة عاليـة مـن التجديد دون مغـادرة التقليـد جملـةً، وأن الزجل يفـارق الشـعر التقليـدي بـالتعبير غالبًا في جو من نشر البهجة ومحاولة صنع النكتة تلو النكتة بعيـدًا عـن جديـة ذلـك الشعر التقليدي وتجهُّمه.

كـذلك الزجـل أقـرب لتصـوير حيـاة الناس عبر حِسٍّ فولكلوري وروح إنسانية.

الهـوامـش

١ - ابن قزمان القرطبي، الديوان، إصـابة الأغراض في ذكـر الأعـراض، تحقيـق: فيـديريكو كـورينتي، المجلـس الأعـلي للثقافة، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٥٩.

٢-ابـن سـعيد المغـربي، المغـرب في حُـلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعـة الثانية، دار المعارف القـاهرة،١٩٦٤م، ج ١- ص ٤٠ .

٣- ابن خلدون، المقدمة، طبعة كـاترمير، باريس،١٨٥٧م.

٤- المزد: الحراسة.

٥- عبدالعزيز الأهواني، الزجل في الأنـدلس، الطبعة الثانية، الهيئة العامة لقصور الضـيافة، القاهرة، ٢٠٠٢ م، ص ١٣٥ .

٦- قطيع كأس كبيرة خاصة للخمر.

٧-الدال هنا بدل الضاد عوضًا.

٨- ويتكرر هذا الوصف الطريـف للثـوب في أزجال أخرى مثل الزجـل (١٩) والزجـل (٧٨) الذي مطلعه بلغ عنـي المنـازه سـلامًا كثيرًا مضت أيام النزاهة وتم العصر.

٩- وتتكـرر الصـورة في الزجـل (١٠٥) الذي يكرسه للحديث عن الفقر:

كف نرجو بقا لقليل أو أكثر

بذا المحنتين الدقيق والشعِر؟

لس بيني وبين ربي غير الحصير

إن درت شوى بالحصير نلتحق

= = = = = = = = = =

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن خلدون: المقدمة، طبعة كاترمير، باريس، ١٨٥٧م .

٢ابن سعيد المغربي، المغرب في حُلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م .

٣- ابن قزمان القرطبي، الديوان، إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق: فيديريكو كورينتي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،١٩٩٥م.

٤- عبدالعزيز الأهواني، الزجل في الأندلس، الطبعة الثانية،الهيئة العامة لقصور الضيافة، القاهرة،٢٠٠٢م.

****